الفصل الأول

مدخل

يؤثر عن أنشتين قوله ذات مرة ... اذا أردت أن تفهم الطريقة العلمية فلا تسأل العلماء أنفسهم ان يشرحوها لك ... ولكن الافضل أن تراقبهم أنت أثناء عملهم لترى وتفهم كيف تمارس الطريقة العلمية ...

وقد ينطبق هذا القول على العملية التربوية تماما ، فلو استطاع الفرد أن يجمع نخبة من المدرسين الاكفاء فى ميادين علمية مختلفة ومن تخصصات مختلفة ، وأن يطلب منهم أن يصفوا بدقة سلوك المدرس كمدرس ، فى الماضى وفى الحاضر ، فربما قد يتعرف من كلامهم على بعض ملامح وطبيعة عملية التدريس ، وقد يقف على مظاهر التغير التى طرأت على مداركنا ومفاهيمنا تجاه هذه العملية .

ولعلنا نلاحظ أن العاملين بعلم النفس التربوى خلال الخمسين عاما الماضية أو ما يقرب من ذلك : قد ركزوا اهتمامهم على تفسير عملية التعلم ، وانحصرت بحوثهم وكتاباتهم فى شرح

وتحليل كيفية حـــدوث التعلم عند الانسان ٠٠ ولـكن هـذه الشروح وهذه التفسيرات تبنى فى معظم الحالات على نتـــائج تجاربهم على الفيران والقردة والحمام وخلافه ٠٠٠ ولا شـك ان هنـاك فرقا بين موقف فار فى متاهـة أو حمـامة فى قفص وموقف طفل ضمن أطفال كثيرين ، داخل فصل دراسى ، داخـل مدرسة ، ويتعلم عن طريق مدرس ٠ فالعملية هنا ليست فقط عملية تعاونية ومشتركة بل هى أيضـا عملية تبادلية ومتكررة٠ وقد لا يـكون دور المدرس هـو أهم الادوار فى تلك العمليـة التبادلية المشتركة والمستمرة ، ولـــكنه بالضرورة دور هـــام لا يمكن اغفاله ٠

وقد نتساءل ما اذا كان التدريس فنا أم علما أم حرفة ٠٠٠ وسأناقش هذا السؤال بشىء من الاسهاب فيما بعد ، ولكن سواء اعتبرنا التدريس فنا أو تكنولوجيا فلا بد ان نعترف بأنه عملية انسانية أصيلة تحدث أثرا معينا ، فهى اذن وسيلة اتصال أو وسيلة تفاهم بين طرفين ٠ وعلى ذلك فلابد أن يوجد (مرسل) يبعث (برسالة) وأن (تصل) هذه الرسالة الى (مستقبل) (بطريقة) معينة ٠ بمعنى أننا لا يمكننا القول ان مدرسا قـد قام بعملية تدريس ناجحة اذا لم يوجد من تعلم منه شيئا ٠ فنحن لا نستطيع التحدث عن التدريس بدون التحدث فى نفس الوقت عن التعلم ٠ وقد تتضح هـــذه الفكرة اذا شـــبهنا التدريس بالعزف الموسيقى ٠٠٠ فلو فرضـــنا ان فرقة موسيقية عزفت سيمفونية رائعة أمـــام مجموعة من الصـم ٠٠٠ ومـع كـون الحاضرين صما ولم يسمعوا السيمفونية التى عزفت ، الا أننـا لا يمكن ان نتذكر ان الفرقة الموسيقية قـــد عزفت سيمفونية رائعة ٠٠٠ اليس كذلك ؟

يختلف الحال فى التدريس ٠٠٠ فنحن لا يمكن أن نشهد أن

المدرس قد قدم درسا جيدا اذا لم يحدث هـــذا الدرس أثره المنشود على التلاميذ ، أى اذا لم يتعلم منه التلاميذ شيئا • وقد عبر جون ديوى عن هـــذه الفكرة عندما شبه المدرس بالبائع ، ومهمة البائع أن يبيع بضاعته للمشترين فاذا لم يشتر أحـــد بضاعته فلا يمكن أن تتم عملية بيع •

ولـكن العكس فى هـــذه النظرية غير صحيح ، بمعنى ان التعلم لا يتوقف حدوثه على « التدريس » • فهناك أشياء كثيرة مما نتعلمه فى حياتنا انمـــا نتعلمه ، على طريقة الفئران فى المتـاهات والحمام فى الاقفاص ، بدون مساعدة مدرس أو كما يقال نتعلمه من الحياة نفسها وبالتجربة والخطأ أو بالصدفة •• ويجدر بنـــا ألا نبالغ فى مـدى مفهوم التعلم بدون مدرس ، لاننا فى الواقع وفى أكثر الأحيان نجد من يحـــل محله ليتولى عملية التدريس • فمثلا الآباء والأمهات « يعلمون » أبناءهم المشى والكلام والاخلاق الحميدة ، والأطفال يعلمون بعضهم البعض اللعب والجرى وتسلق الاشجار وبعض العـــادات والالفاظ . ويتعلم الشاب من صديقه أساليب التعامل والتعاون والاخـــاء والمشاركة ••• وقد يتعلم أشياء ضارة أيضا • وتتعلم الفتـاة من صديقاتها أصول اللبس والاناقة ومفاهيم عن الحياة والحب والصداقة ، وكثيرا وخصوصا فى وقتنا الحاضر ، يتعلم الآباء من أبنائهم مفاهيم ومعانى جـديدة كحرية الرأى والتعبير عن النفس وتقبـل الافـــكار والقيم المتغيرة والمخـالفة لقيمهم وأفكارهم ••• وبعض هـــذا التعلم يكون تعلمـــا مقصودا واعيا ، وبعضه الآخر يحـــدث بدون تعمد أو بـدون وعى أو تخطيط • ومهما كان الامر فقد وجـد من علم الفرد شيئا ما •• وقد نتجاوز قائلين فقد وجد مدرس •

موضوع هـذا البحث هو التدريس الذى يتم بوعى وبتعمد

وبناء على تخطيط مسبق • والاهتمام هنـــا يتركز على وجهـة نظر المدرس وما يتضمنه عمله من مسئوليات ومهارات ، أكثر مما نهتم بوجهة نظر التلميذ وما يحدث له عندما يتعلم • وهـــذا الاتجاه مخالف لاتجاهات العديد من كتب التربية وعلم النفس التى لاحظت فيها اهتماما مركزا على عمليات التعلم أبعدنا بعض الشيء عن الاهتمام بالمدرس وعملية التدريس ذاتها وربما أيضا عما يدرس •

ولا أنكر ان لهذا الاتجاه فى كتابات التربية وعلم النفس ما يبرره ، فالتعلم كما ذكرت ، هـو هـــدف عملية التدريس ومقياس الحـكم عليها ، ولـكن هـذا التعلم لا يحدث الا نتيجة لتدريس جيد ، لذلك لزم الاهتمام والتركيز على دراسة عملية التدريس ذاتها وتحليل جوانبها المختلفة وهو هدف هذا البحث•